7

جزيرة النسانيس . . .

قال سندباد :

نظرتُ إلى باقر، فإذا وجهه أصفر مثل الكُرْكم، فزاد بي القلق وقلت : إنني لا أكاد أفهم ما أسمع، لقد رأيت بعض النسانيس خلال بعض الرحلات؛ فرأيتها نوعًا من الحيوان يشبه القرود، ولكنها أصغر حجمًا وأقل حيلةً وأكثر حركة؛ وبعض الناس يقتنونها في بيوتهم كما تُقتنى الكلاب والقطط، فيجدون في اقتنائها أنسًا . . .

قال الشيخ : إن النسانيس نوع من الخَلْق غير ما تصف يا سندباد . . .

فقال بعض أصحابنا : بل هي نوع ممسوخ من البَشَر!

قال باقر : بل هي نوع ممسوخ من الشياطين، عليها اللعنة!

ومضى باقر في حديثه يقول : لم أكن أعرف من النسانيس إلا ذلك النوع الذي يصفه سندباد، ولم يخطر ببالي أن هناك نوعًا آخر من الخلق اسمه النسانيس كذلك، حتى رمت بي المقادير إلى تلك الجزيرة وحيدًا، بلا زاد ولا متاع ولا سلاح أدفع به عن نفسي الأذى؛ وكنت أركب سفينةً ضلت طريقها بين الأمواج، ثم عصفتْ بها العواصف فانقلبتْ بمن فيها من الركاب، فأخذتُ أسبح على غير هدًى حتى بلغت اليابسة، فحمدت الله على سلامتي، وجلست على الشاطئ أستريح برهة، وإذا شيء لا هو من الناس ولا من الحيوان يَمْثُل بين يدىَّ ويقترب منى، فارتعبت رعبًا لم أرتعب مثله في حياتي، ولم يكن سبب رعبي إلا منظر هذا المخلوق الماثل أمامي . . .

كان شيئًا طويلًا نحيلًا مبطوطًا كأنه شقٌّ نخلة، له عين واحدة في جبهته، ويد واحدة في أعلاه، ورجل واحدة في أدناه، وعلى رأسه المبطوط شعر كريش الهدهد؛ أما فمه فكان مشقوقًا من أعلى إلى أسفل؛ وكان مشيه عجبًا، فهو يخطو كأنه يثب؛ وكانت قدمه كخف البعير: عريضةً مفلطحةً ليس فيها أصبع ولا حافر؛ كأنه واقف فوقها على قاعدة تمثال . . .

فلما وقعت عليه عيني، تخيَّلت إنسانًا قد انشق فلقتين فهذا فلقةٌ منه؛ ثم رأيته يقترب منى ويفتح فمه المشقوق من أعلى إلى أسفل؛ فاستعذتُ بالله من الشيطان الرجيم وسألته السلامة؛ ثم أخذت أزحف إلى الوراء مبتعدًا عنه، فلما أحس حركتي وثب وثبةً فصار ظلُّه علىَّ؛ فأفلتْ من بين شفتيَّ صرخة رعب، فما كان أشد دهشتي حين رأيت له أذنين في جانبي وجهه تتحركان كما يتحرك جناحا الطائر؛ ولم أكن قد لحظتُ من قبل هاتين الأذنين، فعجبت وقلت لنفسي: ما أعجب هذا! إنَّ كل شيء فيه مفرد، من يد، ورجْل، وعين، إلا الأذنين فإنهما اثنتان؛ فلماذا؟ وهل هو إنسٌ أو جنّيٌ أو حيوانٌ وحشيّ؟

وكان لم يزل واقفًا أمامي وأذناه تتحركان، ثم وقفتْ أذناه عن الحركة، وانفتح الفم المشقوق في وجهه؛ وسمعت صوتًا غريبًا آتيًا من ناحيته يقول لي: بماذا تحدِّث نفسك!

فعلمتُ أنه صوته؛ فازداد عجبي، وقلت له : قل لي بالله أأنت شيطانٌ من الجن أو وحش من الحيوان أو أنسيٌّ من الناس ؟

فسمعته يقول : لست شيطانًا ولا وحشًا ولا إنسيًّا؛ أنا النسناس!

قلت : ماذا ؟ إنني أعرف النسانيس، وهى أخت القرود الصغيرة!

فسمعتُ قهقهةً عالية، ثم رأيته يثب نحوي؛ فهببتُ واقفًا لأهرب من وجهه، ولكني لم أكد أخطو خطوتين حتى امتلأ المكان حولي بطائفةٍ من النسانيس أمثاله؛ لكل منهم عينٌ واحدة، ويد

واحدة، ورجْل واحدة، وأذنان تتحركان في جوانب وجوههم مثل أجنحة الطير؛ فلم أجد مهربًا منهم، ووقفت بينهم خائفًا مرعوبًا، تنبض كل عضلة في جسمي من شدة الخوف؛ فاستدروا حولي كالحلقة ثم اقترب منى أحدهم وشدَّني من ذراعي. ثم مضى بي إلى حيث لا أدرى، وقد سبقَنا منهم جماعة وتأخر عنا جماعة، وأنا من شدة الخوف لا أكاد أقدر على المشي . . .

وما زالوا يمشون بي حتى وصلنا إلى ساحة واسعة قد بُنيتْ في وسطها دار، فقادوني إليها، فعلمت أنها دار رئيسهم؛ ولم يكن لتلك الدار باب كأبواب دورنا، ولكن في جدارها شقًّا مستطيلًا لا يزيد عرضه على شبر وبعض شبر؛ فلم يخطر ببالي أن ذلك الشق المستطيل الضيِّق هو باب الدار إلا حين رأيتهم يتجهون نحوه ليدخلوا،

فدخل منهم من دخل بغير عناء، لأن أجسامهم مبطوطة لا يزيد عرضها على الشبر؛ ثم جاء دوري لأدخل؛ ولم يكن يخطر ببالهم أن ذلك الباب يضيق عن جسمي، فدفعوني إليه دفعًا بقوة، فدخلت بكتف وذارع، ثم انحشر بطني فلم ينفذ، وامتنع عليَّ الدخول؛ فحسبوني ممتنعًا بإرادتي، فأخذوا يدفعونني بعنف وغلظة؛ فازددتُ حَشْرةً في الباب حتى كادت روحي تزهق، ولكنَّ جسمي لم ينفذ، فلما رأوني كذلك كفُّوا عن دفعي بأيديهم ووقفوا يتشاورون في أمري . . .

ثم أخذوا يجذبونني من ذارعي ليُخرجوا ما دخل من جسمي؛ فلم أستطع أن أخرج ولم يستطيعوا إخراجي؛ وكان الذين في الداخل لا يعرفون أنَّ الذين في الخارج يجذبونني، فاستمروا يجذبونني؛ وهكذا وقفت في ذلك المضيق بين قوتين تتجاذباني : قوة في الداخل تجذبني من ذارع لأدخل وقوة في الخارج تجذبني من ذراع لأخرج، وأنا محشور الجسم لا أملك دخولًا ولا خروجًا ولا صوتًا ولا حركة؛ ثم لم ألبث أن فقدت وعيي من شدة آلام الجذْب. . .

ثم أفقت فرأيتني محشورًا حيث كنت، وقد كفُّوا عن جذبي وتركوني . . .

فلما أيقنتُ إنني وحيد في المكان، أرهفتُ أذنيَّ، فلم أحس حولي حركةً ولا صوتًا؛ فأيقنت أنهم في مكان بعيد، وعاودني الأمل في النجاة؛ فقدحتُ زناد فكرى لأستنبط حيلةً أخلص بها من هذا الضيق . . .

وشعرت بقرصة مؤلمة في ساقي فهممت أن أحك مكان تلك القرصة؛ فلم تصل إليه ذارعي؛ ولكني تنبهتُ إلى أن ذراعيَّ مطلقتان، فأخذت أحفر بأظفار يديَّ في الجدار الذي يضغط على بطني، لعلي أستطيع أن أنزع منه حجرًا أو أحجارًا فأوسِّع لنفسي؛ وما هي إلا لحظات حتى استطعت أن أنزع حجرًا ثم حجرًا ثانيًا. . .

وخف الضغط على بطني، فازددت نشاطًا وقوة، ونزعت حجرًا ثالثًا، فاستطعت أن أتحرك؛ ولكني لم أكد أخرج بجسمي من المضيق حتى انهار جانب من الجدار؛ فأسرعت بالابتعاد قبل أن ينقض البناء كله على رأسي فيقتلني!

وكان لانهيار الجدار صوتٌ شديد سمعه النسانيس من بعيد، فأسرعوا إليَّ ليروا ماذا جرى، ولكن الغبار الكثيف كان يواريني عنهم، وكانوا مندفعين بسرعة نحو الدار فلم يروني؛ وبذلك أتيحت لي فرصة للهرب؛ ومضيت على وجهي حتى بلغت الشاطئ، ثم وقفت حائرًا لا أدري أين أذهب وليس أمامي إلا البحر . . .

وكنت متعبًا أشد التعب؛ فبذلت جهدي في البحث عن مكانٍ مستورٍ آوي إليه؛ فلم ألبث أن وجدت صخرةً قائمةً على بعد، فقصدت إليها، فوجدت مغارةً، ولكني خفت أن يكون فيها حشرات مؤذية فلم أدخلها، وجلست على بابها، ثم جعلت رأسي بين ركبتيَّ ونمت . . .

ثم استيقظت على صوت ورائي، فنظرت، فإذا شبح يزحف نحوى من داخل المغارة، فقمت مرعوبًا . .

وكان النهار قد أشرق، فلمحت ظلالًا تتحرك فوق الصخرة، فعلمت أن بعض النسانيس جاءوا يبحثون عني في هذا المخبأ؛ ورأيتني بين شرَّين : شر يزحف إليَّ من جوف المغارة، وشر يزحف إليَّ منحدرًا من فوق الصخرة؛ فاستسلمت لقضاء الله!

ولكنَّ الشبح الذي كان يزحف من جوف المغارة لم يتقدم، والظلال التي كانت تتحرَّك فوق الصخرة لم تنتقل عن مكانها؛ فعجبت وقلت لنفسي : لعل كلَّ ذلك كان وهمًا من أوهامي!

وعدتُ إلى مكاني آمنًا بعض الأمان؛ ثم خطر لي أن أخطو خطوتين نحو الشاطئ، لعلي أرى سفينةً على البعد فأشوِّر لها لتنقذني؛ ولكني أحسست في تلك اللحظة حركةً ورائي، فالتفت بسرعة؛ فإذا الشبح يخرج من المغارة متَّجهًا إليَّ وبين يديه صخرة كبيرة لو هوى بها على رأسي لتهشم؛ فاستعددت للدفاع عن نفسي؛ ولكنه لم يكد يراني أنظر إليه حتى ألقى الصخرة وأولاني ظهره هاربًا؛ ولحظت في تلك اللحظة أن له رجلين لا رجلًا واحدة، فصرخت به : قف، لا تتحرك !

فوقف وظهره إليَّ، فعلمت أنه خائف منِّي، وشجَّعني هذا على التقدم إليه، فلما دنوت منه رأيت جسده كله يرتعد من شدة الخوف، فوضعت يدي على كتفه قائلًا : أنظر إليَّ . . .

فاستدار إليَّ وهو يرتعد، فلما التقت أعيننا زال كل ما كان في نفسى من الخوف، وزال كل ما كان في نفسه كذلك؛ ورأيت شفتيه تتحركان ولكني لا أسمع له صوتًا؛ فقلت له: أنت لستَ نسناسًا!

وكأنما كان في نفسه بقية من شك، فلما سمعني أقول : " أنا باقر ولست نسناسًا؛ فمن أنت؟ وماذا جاء بك إلى هذه الأرض ؟ "

عاد إليه الاطمئنان، وانحلَّت عقدة لسانه، ثم أخذ يروي قصته . . .

وكان إنسانًا مثلي، قذفتْه الريح بسفينته إلى ذلك الشاطئ ومعه بعض الملاحين من زملائه، فما كادوا يخطون على الأرض بعض خطوات حتى ظهر لهم النسانيس فقبضوا عليهم وقادوهم إلى رئيسهم كما قادوني؛ فأخذ الرئيس يسألهم عن أنفسهم، وعن بلدهم، والسبب الذي جاءوا من أجله إلى أرض النسانيس؛ ثم أمر بهم فسُحبوا على وجوههم إلى غرفة مظلمة فحُبسوا فيها ثلاثة أيام؛ والنسانيس يقدمون إليهم الطعام والشراب ويكرمونهم كل الإكرام؛ فلما كان اليوم الرابع جاء نسناس فصحب واحدًا منهم فذهب به ثم لم يعد، وجاء في اليوم الثاني فصحب رجلًا ثانيًا فذهب به ثم لم يعد كذلك، وهكذا صار يفعل كل يوم، حتى لم يبق إلا رجلان؛ فقال أحدهما للآخر : " يا ترى أين يذهبون بأصحابنا " ؟ فقال الآخر " لا أدري" ! وكان في الغرفة نافذة عالية، فحمل أحدهما الآخر إلى النافذة فنظر منها فإذا النسانيس ملتفُّون حول صاحبهما الذي أخذه النسانيس منذ ساعة وقد همُّوا بذبحه ليأكلوه؛ فلما رأى الرجل هذا المنظر عرف أن آخرته وآخرة صاحبه مثل هذه الآخرة، فاتفقا على الهرب قبل أن يأكلهما النسانيس؛ وساعدهما الحظ فهربا، واتخذا طريقهما إلى الشاطئ؛ ولكن النسانيس؛ أدركوهما فقبضوا على أحدهما وهرب الآخر، فلجأ إلى هذه المغارة وعاش فيها أربعة أشهر قبل أن يراني . . .

واستمر باقر يحكي، فقال : تعجبتُ من قصة ذلك الرجل وقلت له : وكيف استطعت أن تعيش أربعة أشهرٍ في هذه المغارة ؟ ومن أين كنت تأكل وتشرب ؟ وكيف كنت تنام ؟

فقال لي: كنت أظن أنني لن أعيش في هذه المغارة أكثر من يوم أو يومين، ثم أهتدي إلى طريقة أهرب بها من الجزيرة؛ ولكن الأيام مضت متتابعةً ولم أهتد إلى طريقة للهرب، ولم أر في تلك المدة كلها إنسانًا غيرك؛ أما الطعام والشراب فقد يسَّرهما الله لي، إذ عثرت بعد يومين على مورد رزق عظيم، يكفيني، ويكفي عشرةً معي، شرَّ الجوع والظمأ؛ فهل أنت جائع فأطعمك، أو ظامئٌ فأسقيك ؟

وكنت لم آكل شيئًا منذ أمس، فقلت له : إنني جائعٌ وظمآن!

فقال لي: إذا صبرتَ إلى الليل صحبتُك إلى حيث تجد كفايتك من الطعام والشراب!

فقلت : ظننتك تستطيع أن تجيئني الآن بطعام وشراب !

فتردد برهة ثم قال : لعلي أستطيع الآن، فاصحبني وخذ حذرك؛ فإني لم أتعوَّد الخروج إلى ذلك المكان في نور النهار . . .

وكنتُ أظن أنه سيقودني إلى باب المغارة، ولكنى رأيته يقودني إلى داخلها، فشككتُ في أمره، وخشيت أن تكون حيلةً يحتال بها عليَّ ليقودني إلى هلاكي؛ ولكني اصطنعتُ الشجاعة ومشيت وراءه على حذر . . .

وظللت أمشى وراءه في ظلام المغارة إلى داخلها العميق؛ فما كان أشد دهشتي إذ أحسست نسيمًا لطيفًا يهبُّ على وجهي فينعشني، ثم رأيتُ شعاعًا من نور؛ فأيقنتُ أن للمغارة بابًا آخر يؤدى إلى فضاء؛ وكان يقيني صادقًا، فلم نلبث أن وصلنا إلى آخر المغارة، فإذا هي تنتهي إلى فضاءٍ فسيح مُشمس، قد نبتت فيه بعضُ الأعشاب وانتصبت بعضُ الأشجار وقد تساقطت

تحتها ثمرات ناضجة، فالتقط صاحبي ثمرةً منها ثم قشَّرَها وقدَّمها إليَّ؛ ثم التقط ثمرةً أخرى وقشَّرها وأخذ يقضمها، فأهويتُ على ثمرتي بأسناني، فإذا لها طعمٌ لذيذ ومذاق حلو لم أجد مثله في ثمرة من الثمار . . .

وكان صاحبي قد أكل ثمرته كلها وألقى بذرتها، فانحنى على الأرض ليلتقط ثمرةً أخرى، ولكنه لم يكد يفعل حتى سمعنا صيحةً شديدة، فارتعبنا وتسمَّرت أرجلنا في الأرض، ومال عليَّ الرجل هامسًا : " قد رأونا " ! فارتعبت ووليتُ وجهي مسرعًا نحو المغارة وهو يتبعني؛ ولكني سمعت صيحةً أخرى ورائي، وسقطة جسم على الأرض؛ فنظرتُ ورائي بلا وعي، فإذا صاحبي مُلقًى على الأرض وبين كتفيه سهمٌ مغروز؛ فأسرعت إلى باب المغارة فاحتواني ظلامها، وابتعدتْ عني الأصوات والأصداء، فوقفت في مكاني كالتمثال لا أدري أين أذهب، ولا ماذا أفعل؛ ثم عاد إليَّ رشدي، فكأنما سمعت صوت صاحبي يستنجد بي فمضيتُ لنجدته دون أن أفكر في أمر نفسى؛ ولكني لم أكد أقترب من الباب حتى وقفت مترددًا، ثم عدتُ من حيث أتيت!

وانتهى النهار، ومضى الليل كله وأشرق صبح جديد، قبل أن أجمع نيتي على المخاطرة لإنقاذه؛ فلما وصلت إلى حيث كان، لم أجده ولم أجد أحدًا غيره؛ ولكني وجدت عظامًا مبعثرة، فعلمتُ أنهم أكلوه. . .

رحمة الله عليه، ذلك الرجل الكريم الذي صحبتُه يومًا واحدًا من حياته، ولم أعرف اسمه ولا وطنه ولا أهله؛ وبذل عمره – مع ذلك – في سبيل إكرامي!

قال باقر : ثم عثرت على بعض مخلفَّات الرجل في المغارة، فعرفت أن اسمه شهبندر . . .